البيوت البيروتية في مدوّنات الرّحالة القدماء

نَقِّل فُؤادَكَ حَيثُ شِئتَ مِنَ الهَوى

ما الحُبُّ إِلّا لِلحَبيبِ الأَوَّلِ

كَم مَنزِلٍ في الأَرضِ يَأَلَفُهُ الفَتى

وَحَنينُهُ أَبَداً لِأَوَّلِ مَنزِلِ



بيوت بحر بيروت. مائية بريشة الفنان التشكيلي نبيل سعد

(مجموعة سهيل منيمنة)

إذا سرت اليوم في محلة وطى المصيطبة البيروتية، وتحديداً بين مستديرة الكولا وصولاً للأونيسكو، فسيلفت نظرك تواجدد عدد من محلات ومستوداعت ومعامل الرخام والبلاط وأحجار البناء. إن وجود هذه المراكز التجارية والصناعية في تلك المحلّة ليس من قبيل الصدفة، بل هو امتداد زمني لما كان يعرف بمقالع بيروت قديماً.

كانت معظم بيوت بيروت مبنية بالحجر الرملي الذي كان يُجلب من مقالع منطقتي الزيدانية والمصيطبة، تحملها أرتال من الحمير، عُرفت بحمير الحجّارة، من المقلع إلى موقع البناء. وكانت هذه البيوت مبنية على طراز البيوت العربية القديمة التي وجدت في دمشق والقاهرة وبغداد وغيرها من المدن العربية. أخذ طراز العمارة المذكور ميزاته من عاملين هما المناخ والأعراف الأخلاقية والاجتماعية. وقد تميّزت العمارة المذكورة بالاهتمام بداخل البيت الذي كان يتألف من فناء داخلي هو عبارة عن فسحة سماوية، تحتوي بركة ماء، تزرع حولها نباتات مزهرة كالياسمين والفل والفتنة، وأشجار مثمرة كالليمون والأكي دنيا وغيرها. وتتوزع الغرف في الطبقة الأرضية حول الفناء المذكور، تعلوها طبقة ثانية يصعد إليها بسلّم داخلي، إلى ممرّ يُدخل منه إلى الغرف العليا. ولم يكن ثمة شرفات أو نوافذ تطل على الطريق، بل أمّنت القمريات* المرتفعة وصول النور والضياء إلى الغرف.

---

*القمرية: نافذة صغيرة ذات تغشية من الجص أو الحجر المفرغ أو خشب الخرط. وهي مسديرة الشكل في أغلب المباني البيروتية القديمة وقليل منها كان على أشكال نباتية وهندسية متشابكة أو مخرمة، غالباً ما كانت تعشق بالزجاج. دورها الوظيفي في الإضاءة والتهوية ودورها الجمالي في الشكل والزخارف.

إلى بداية ستينيات القرن الماضي كانت هذه البيوت تتميز بالبساطة مع اتساع الغرف وضرورة وجود حديقة و"سطيحة" و"علّية" تظللها عرائش العنب خاصة على واجهاتها الشمالية والغربية، مما يبعث في النفس الهدوء والطمأنينة بعد يوم عمل شاق. يقول المؤرخ عبد اللطيف فاخوري في "منزول بيروت": يمكن ملاحظة التناسق بين العائلة والبيت والمدينة. فالمدينة يحدها سور تقفل أبوابه مساءً، والبيت مقفل على الخارج لا ينبي مظهره عن داخله. والعائلة تتوزع الغرف وتشترك في المنافع العامة له بعيداً عن أعين الغرباء، يتحرك أفرادها ويتنقلون ويمشون فيه بكل راحة وطمأنينة. إذا أمطرت جلسوا تحت القسم المسقوف من أرض الدار ـ الفسحة السماوية ـ وإذا اعتدل الحر جلسوا حول البركة في وسط الفسحة المذكورة. فإذا اشتد الحر صيفاً صعدوا إلى العلّيات وسهروا وتمتعوا بالهواء الغربي الذي وصفوه بالحنون وغنوا له: يا رب يدوّر غربي تيرجع حبيب قلبي." [بيروتنا: عيتاني وفاخوري]. وعن هواء بيروت اللطيف كتب الشاعر الملحمي اليوناني ننّوس قبل حوالي 1600 عام: "... إنها مدينة "بيروي" (بيروت)، سحر حياة الإنسان... منتشرة تحت جسر كثيف من غابات لبنان "الأسّيري" في الشرق المتوهّج، حيث يهبّ على سكانها نسيم منعش للحياة، يوشوش عالياً، وهو يحرّك أشجار السرو بنفحات من العطور...".

في مطلع ثمانينيات القرن الخامس عشر الميلادي، وصف النبيل الفلمنكي فان غيستيل Joos van Ghistele بيروت بأنها "مدينة عامرة بالمنازل والناس تحيط بها المراعي والجنائن، خاصة أشجار الرمّان والليمون والحامض والزيتون والتين واللوز. وهواء المدينة نقيّ لدرجة أن المرضى من تجار دمشق وحلب وطرابلس يقصدونها للمعافاة..".

عن بيوت بيروت يقول الدكتور لويس لورته Louis Charles Émile Lortet في رحلته الشهيرة "مشاهدات من لبنان" في العامين 1875 و1880:

"وهيئة بيروت اليوم تختلف عما كانت عليه منذ سنوات، فقد أنشئ حي جميل في وسط البساتين التي تُشرف على الفرضة، وشيّدت بنايات كبيرة على الروابي المحيطة، فألبست المدينة هيئة مهيبة. والبيوت الجديدة تكاد تكون كلها مبنية على نسق

واحد: طبقة سفلى تحتوي على مرابط الخيول، ومخازن المؤن، وغيرها. ثم يرتفع سلّم واسع من الرخام الأبيض، يقود إلى الصحن الكبير المتوسط، ويخترق المنزل من مكان إلى آخر، وقد فتحت فيه نوافذ واسعة قوطية الطراز تطلّ من الشمال على البحر، ومن الجنوب على لبنان. وفي طرفي المنزل عواميد تحمل سقفاً عالياً، وترتفع حتى السطوح. وامامه شرفة أنيقة يتنسم عليها أصحابه الهواء الرطب الآتي من الشاطئ. وفي صدر الصحن ردهة صغيرة مفصولة بأعمدة صغيرة يُصعد إليها بدرجتين أو ثلاث، وتستخدم إمّا للاستقبال، أو كغرفة للمائدة. وتستند إلى الحيطان دواوين معدّة للقيلولة. وكل غرف النوم تُفتح على هذا الصحن، وتنفذ أحياناً إلى أروقة واسعة خارجية تسند سقوفها أعمدة من الحجر الكلسي الأصفر الذهبي، أو من الحجر المشحّم بالأبيض. والأرض مبلّطة بالرخام الإيطالي، تنبسط فوقه سجادات ذات ألوان نضرة، وتبرز من السقوف الصندوقية الشكل، عوارض من صنوبرات ضخمة نمساوية النوع، تذهّبها شمس المشرق الساطعة.

كتب الدبلوماسي والمؤرخ الألماني أوبنهايم Max von Oppenheim في كتابه "من البحر المتوسط إلى الخليج" عن هذه البيوت خلال إقامته في بيروت صيف 1893: "يسعى أسلوب بناء البيوت الجديدة في بيروت إلى التكيّف مع المناخ كما هو الحال في كثير من مناطق أوروبا الجنوبية. والطابع المميز لهذه البيوت هو الصالة المتوسطة الكبيرة "الدار" الموجودة في الطابق الأرضي وفي الطوابق العليا والتي تأخذ غالباً عمق البيت كاملاً وتصب فيه جميع الغرف. أما نوافذ الدار الكبيرة جداً والعالية جداً والتي تتجه غالباً نحو الأعلى بشكل قوسي فتزيَّن من جهة الشارع بمشبك من الحديد المصنوع بشكل فني أنيق. في بعض الأحيان تكون الصالة مقسمة بأعمدة وشبابيك زجاجية تؤدي إلى غرفة واقعة في الخلف تسمّى "الليوان".

وفي نفس هذه السنة ذكر العلامة والرحالة الهندي شبلي النعماني أنه في الجانب القديم من المدينة البيوت منخفضة وغير فسيحة، ولكن الجانب الحديث ذا بهاء وجمال.

أما الرحالة المصري عبد الرحمن بك سامي فقد قال في بيوت بيروت أواخر القرن التاسع عشر في كتابه "القول الحق في بيروت ودمشق": "وقد أعجبني فيها شوارعها الواسعة على النسق الأوربي، ونور الغاز، وجمل أبنيتها وتنظيمها وكبرها، وكثرة الجنائن فيها. فإن كل بيت أمامه جنينة وبيوتها الجديدة غير ملتصق بعضها ببعض، فهي بذلك أشبه بحي الاسماعيلية في القاهرة. مع أن بيوت بيروت القديمة، وبعرف أهاليها (داخل الصور) لا تزال على الطراز القديم من جهة ضيق الشوارع، ولكن مساحتها صغيرة لا تزيد عن كيلومترين مربعين. وهي واقعة في نصف المدينة الحديثة."

كانت بيوت بيروت في مناطق المدينة متشابهة إلى حد كبير. كتب الصديق المحامي عمر زين في كتابه الجامع "من ذاكرة بيروت" عن بيوت منطقة البسطة: "على جانبيّ شارع الأوزاعي الممتد من منطقة الحرج حتى عسّور كانت أشجار الجاكارندا التي تزهر زهراً أحمر ورديّاً أيام الربيع، وتتساقط الزهرات منها لتغطّي الشارع بكامله في مشهد ولا اروع يضاهي في جماله شوارع أوروبا... ضم كل منزل في هذه المنطقة حديقة مغروس فيها شجر ليمون بو صفير، وأكيدنيا ودالية عنب، وزهرة حنّة، وياسمينة، وحنبلاسة، وبعض الأحيان قرطاسْية، أو فتنة أو شجرة زنزلخت التي في رائحتها ما يمنع البرغش، وقنّ لتربية الدجاج (كنا نسمع صياح الديك كل صباح يصدر من معظم البيوت). وكانت هذه المساكن عبارة عن فلل مؤلّفة من طابق أو طابقين مغطّاة بالقرميد الأحمر، وفي حديقتها بركة ماء...".

منذ القدم، إهتم البيارتة داخل بيروتهم وخارجها بالأخلاق الحميدة والتقوى. حوالي العام 1785 زار المؤرخ الفرنسي فولني Constantin-François de Chasseboeuf, count de Volney بيروت. ومما قاله عن إجتماعيات المدينة في ذلك الوقت: "ومما يجدر ذكره ذاك الظاهر لملامح وأحاديث السكان الدال على الورع والتقوى، فلا يُرى في الطريق إلا أناس في أيديهم المسابح، ولا تسمع إلا ابتهالات مفخمة موجهة إلى الله تعالى، ويطرق أذنك على الدوام ذكر صفة من صفات الله التسع والتسعين (أسماء الله الحسنى). إذا استفز أحدهم الحيث قال: يا الله، أو الله أكبر، الله تعالى. وإذا باع أحدهم خبزاً فإنه لا

ينادي بخبزه بل يقول: الله كريم، وإذا باع ماءً قال: الله جواد، وقس على ذلك سائر الأحوال. [حبيب السيوفي. سورية ولبنان وفلسطين في القرن الثامن عشر كما وصفها أحد مشاهير الغربيين].

في كتابه "المسالك والممالك" يذكر الرحالة ابن حوقل محاسن البيارتة بعد زيارته للمدينة في منتصف القرن العاشر الميلادي بقوله: "بيروت على ساحل بحر الروم... وبها يرابط أهل الشام وسائر جندها... وفيهم من إذا دُعي إلى الخير أجاب، وإذا أيقظه الداعي أناب. وبيروت هذه كانت مقام الأوزاعي. وهي ذات نخيل وقصب سكر وغلات متوفرة... حصينة خصيبة متينة السور، رخيصة الأسعار، جيدة الأهل مع منعة فيهم من عدوهم وصلاح في عامة أمورهم". وكتب الرحالة الكريتي يوهانس فوكاس Johannes Phocas سنة 1177م عن بيروت في مدوّنة له بعنوان "رحلة يوهانس فوكاس إلى الديار المقدسة" ما يلي: "... ثم بدت بيروت، مدينة كبيرة مأهولة وسط مروج واسعة، ومزيّنة بمرفأ جيد."

في مستهلّ القرن التاسع عشركان الزائر الغربي تؤثر فيه المشاهد المحلية الغريبة. فكان يرى الرجال بسراويلهم الواسعة أو غنابيزهم (جمع غنبار أو خنباز) المقلّمة، والنساء، سواء كن نصرنيات أو مسلمات يخرجن إلى الأسواق محجبات... وكان الغربي يرى الناس في هذا الجزء من العالم يعيشون في عالم حالم يسير ببطء. ولكن ما أن انصرم القرن حتى أصبح الغريب الزائر يشعر في بيروت أنه ليس غريباً في بلاد غريبة. [حتي: تاريخ لبنان، ص 571]. وقد أسهب القس والرحالة الأمريكي فان لينيب Henry J. Van-Lennep المولود في إزمير سنة 1815 في وصف الحياة الاجتماعية في بيروت وسائر لبنان في كتابه "*Bible Lands: Their Modern Customs and Manners*" المطبوع في نيويورك سنة 1875، فليراجع.

ومَن أفضل ممن يصف بيروت وبيوتها إلا شاعر عالمي قضى فيها حوالي عامين، أقصد الفرنسي لامارتين الذي وصف مشاهداته للمدينة سنة 1832 في كتابه " رحلات إلى الشرق". عن بيوتها قال: " برزت بيوت البلدة في مجموعات مشتتة، وكانت أسطح الطوابق السفلية بمثابة مصاطب للطوابق العلوية. هذه المنازل ذات الأسطح المزيّن بعضها بدرابزين ذات أبراج، وقضبان من الخشب المطلي الذي أغلق النوافذ بإحكام بحجاب الحميّة الشرقية، وقمم أشجار النخيل التي بدت وكأنها تنبثق من الحجارة، وأظهرت نفسها حتى تحت الأسطح، كما لو كانت تقدّم القليل من الخضرة إلى أعين النساء السجينات في الحريم – كل هذا أسرنا معلناً عن سحر الشرق." كيف لا يأخذ سحر بيروت بألباب لامارتين، وهو نفسه وقف يوماً على تلة مشرفة على بيوت المدينة ومعالمها الطبيعية والعمرانية فقال: " لم يعط الله الإنسان أن يحلم بجمال ما حلم به. لقد حلمت بعدن، وأستطيع أن أقول أنني رأيتها.

في وصفه للمدينة سنة 1839 يقول الرحالة الفرنسي البارون "ايزيدور جاستن سفرين تايلور" في كتابه "فلسطين والأرض المقدسة": المنازل والمتاجر والأسواق في بيروت مبنية عموما بشكل أفضل مما هي عليه بقية مناطق الساحل، وجميع المنازل هنا تقريبًا من الحجر، وهي أعلى بشكل واضح من المدن الأخرى في الشرق. الشوارع ليست نظيفة للغاية على الرغم من أنها مرصوفة وواسعة إلى حد ما، ويرجع ذلك إلى ندرة المياه، والنساء مضطرات للذهاب بعيدا لجلب المياه ." ويتحدث عن التسامح الكبير الذي يتعايش فيه سكان المدينة : "وللمسيحيين بمختلف طوائفهم أربع كنائس ويوجد أيضًا ثلاثة مساجد جميلة بمآذنها وساحاتها ونوافيرها المتدفقة، وفي وسط المدينة يرتفع بشكل مهيب المسجد الكبير." ومع هذا الوصف يتمكن "تايلور" من التقاط ملاحظة يبدو ان صلاحيتها ما زالت قائمة ومستمرة الى يومنا هذا, فيقول :" بيروت لا تُخفي ندوب جراحها ، فهي لم تكن دائمًا سعيدة ومسالمة, ولا زالت تحتفظ بذكرى التقلبات التي عاشتها,وتغيير الأسياد في كثير من الأحيان لدرجة أنها لم تعد تعرف لمن تنتمي! (الفقرة ترجمة الصديق الأستاذ نبيل شحاده).

وعن بيوت بيروت المنتشرة في مزارعها كتب الرحالة الايرلندي واربيرتون Eliot Warburton سنة 1843 في كتابه "الهلال والصليب" ما يلي: " تقع بيروت على مرتفع متموج ينحدر إلى البحر، وفي الوادي الذي يقع بين المرتفع والجبال،

تنتشر إحدى أغنى المساحات الخضراء وأكثرها تنوعاً في العالم. حدائق، وبساتين، ووميض نهر متعرج، وبيوت صغيرة بيضاء نصفها مغطى بالشجيرات الزاحفة، وممرات من الصبار المزهر، بينما ينهي البحر كل مشهد من الشمال والجنوب...".

في بيوتها، وأسواقها، وحاراتها ومحلاتها وشوارعها، بيروت حاضنة حامية مضيافة راقية في كل الأزمنة. قال الخليفة الأموي الوليد ابن يزيد بن عبد الملك في قصيدة له:

ألا يا حبّذا شخص حَمَت لُقياه بيروتُ

سهيل منيمنة

صيدلي. مؤسس جمعية تراث بيروت.

2024/05/24